نشرة شهرية ثقافية اقتصادية ليبرالية تصدرها جمعية النداء الجديد

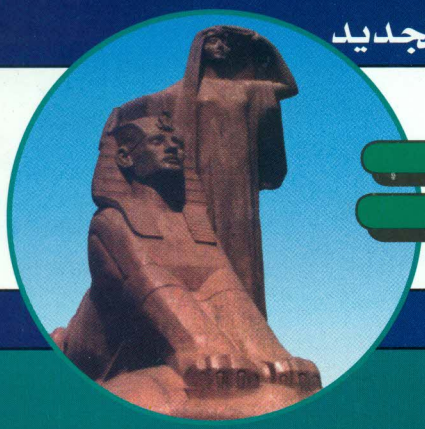

النداء الجديد

العدد الواحد الستون - مايو ١٩٩٩

حرية - عدالة - عقلانية

منظمة التجارة العالمية تحفظ حقوق البلاد النامية

- الفضيحة الكروية وامراض المجتمع
- هموم بيئة العمل فى مصر

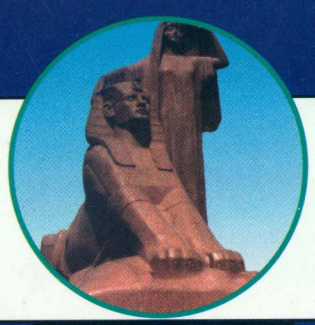

النداء الجديد

مايو ١٩٩٩

رئيس مجلس الإدارة : د. سعيد النجار رئيس التحرير : د. وحيد عبد المجيد

مستشارو التحرير : د. حازم الببلاوى - د. أسامة الغزالى حرب - أ. محمود أباظة - د. شريف لطفى

العنوان : ١٤ شارع عبد الحميد لطفى - مدينة المهندسين / ت : ٣٣٧٤٢١٣

رؤى ليبرالية

ظاهرة "مثقف" السلطة

■ كثيرة هى الإنتقادات التى توجه هذه الأيام ضد المثقف الشمولى. وربما كان آخرها ماكتبه أ. على سالم فى "الحياة" أخيراً عن "حكماء المشروع القومى". ولاخلاف على الدور البائس الذى لعبه مثقفون شموليون، ومازالوا، فى بلادنا. غير أن هذا الدور لم يعد هو مصدر الخطر الأول فى اللحظة الراهنة مقارنة بالأثر الفادح الذى ترتب على خطاب وممارسات مثقف السلطة. ولذلك يبدو التركيز على آفات المثقف الشمولى وغض النظر عن غيره، نتاج إنتقاء غير موفق اذا كان الغرض منه هو إثارة أزمة الفكر والثقافة فى بلادنا الآن. فهذا مدخل جزئى، بل وربما يتعلق بالجزء الأقل أهمية. ولايرجع ذلك إلى أن الفكر الشمولى قليل الخطر، وإنما إلى كونه محدود التأثير الآن. فقد صار خطابه مفارقاً للواقع إلى الحد الذى يجعله عسيرا على الأجيال الصاعدة الإلتفات إليه. كما أن جانباً من هذا الخطاب صار مثيراً للإشفاق حيناً، وباعثاً على الضحك حيناً آخر.

أما الجزء الأكثر أهمية وخطراً فهو الخاص بمثقف السلطة الذى لايطرح حلولا خاطئة لمشاكلنا، وإنما يبحث عن حل لمشكلته هو عبر الإقتراب من أروقة الحكم بأى وسيلة ساعياً إلى بيع ما غلا ثمنه بما بخس الأثمان. فهو مستعد لأن يفعل أى شئ وكل شئ كى ينال الرضا والإستحسان ممن يفترض أن دوره الحقيقى هو تقييم أدائهم.

لقد أصبح وقوف أعداد متزايدة من المثقفين على أبواب السلطة ظاهرة إجتماعية وليست حالات فردية. وربما يصار قريبا إلى اعتبار من يحرصون على احترام أنفسهم وثقافتهم وعلمهم هم الأقرب إلى الحالات الفردية. وهذا هو مصدر الخطر فى ظاهرة مثقف السلطة. ويزداد هذا الخطر أضعافاً فى ظل بناء إجتماعى سياسى شديد السيولة يعانى فى ظله شباب المثقفين الصاعدين حال ضياع وفقدان للإتجاه. وما أسهل أن يصير مثقف السلطة، فى مثل هذه الحال، قدوة لهم يقتفون أثره ويفعلون مثله ويصبحون أكثر تشوها منه. فعل سبيل المثال، كان هناك اعتقاد فى أن أسوأ ممارسة يقوم بها بعض مثقفى السلطة هو الوشاية بزملائهم وكتابة تقارير ضدهم. ولكن فى جيل تالى، تبين أن هناك ما هو أسوأ لأن التقارير الأمنية التى كانت سرية صارت فى العلن وعلى صفحات الصحف، فى صورة تحريض مباشر للسلطة على منع كتّاب من الكتابة أو طرد صحفيين من مؤسساتهم أو حظر استطلاعات الرأى العام أوغلق منظمات حقوق الإنسان.

والأخطر من ذلك أن مثقف السلطة الأسوأ هذا كان يتعرض لمقاطعة واسعة ويعيش فى عزلة خانقة. أما الآن فهو لم يتجاوز العزلة فحسب، بل وازداد التحلق حوله ممن يظنون أنه يستطيع اختصار الطريق التى ينبغى عليهم أن يسلكوها إلى السلطة، ودون أن يفعلوا الإثم الأقصى الذى أتاه.

ورغم أن هذا وضع مهين للمثقف، فهو يغدو صعباً على السلطة نفسها، عكس ماهو مفترض من أن الإقبال عليها يؤكد سلامة سياساتها وحسن أدائها. فمن المستحيل عليها ارضاء جيش من المثقفين الباحثين عن مكان لهم فى داخلها، والمتطلعين إلى مناصب فى مقابل تخليهم عن دورهم الحقيقى النقدى.لقد كانت السلطة تبحث فيما مضى عن مثقفين يزينوتها. كما كانت تعتمد أسلوب الولاء قبل الكفاءة. ولكن الكثير من المثقفين الآن هم الذين يبحثون عن السلطة. فإذا كثر الموالون ، انقضى مغزى تقديم الولاء على الكفاءة. فلم يعد الولاء عملة نادرة، وانما الكفاءة هى التى صارت قليلة طالما اختلت أولويات عدد متزايد من المثقفين ولم يعد تطوير أدائهم وتحسينه هو أول مايشغلهم.

ومع أن كثرة المنتظمين فى الطابور تجعل مهمة السلطة صعبة فى استيعابهم لأن الفرص المتاحة أقل مماهو مطلوب، فقد يتبين أن الكثيرين منهم لايستعجلون. ومع ذلك فهم يتسابقون، على نحو يخلق مايشبه (سوقا للانتلجنسيا) يزداد عدد المتعاملين فيه عارضين بضاعتهم. ومن الطبيعى أن يعمل القانون الذى يحكم العلاقة بين العرض الكثير والطلب القليل. فليس هذا قانوناً اقتصادياً فقط. أنه القانون الأساس فى أى سوق ولأى بضاعة. وحين يزيد العرض ويقل الطلب، تكسد التجارة وبتور، ويخسر المتعاملون فلا يجد بعضهم غير التسول. ويترتب على ذلك خفض التطلعات وتدنى التوقعات . فهناك من يرضى بالقليل والبعض يرضيه الفتات، وهو يوهم نفسه بأنه يلعب دورا ما فى السياسة العليا، بعد أن تخلى عن دوره الحقيقى فى السعى إلى ترشيد هذه السياسة عبر الإبداع فى مختلف المجالات.

فالإبداع لايكون إبداعاً اذا وقف أمام باب السلطة ينتظر حسنة أو صدقة أو مكافأة مادية كانت أو معنوية. الإبداع الحقيقى يقتحم الأبواب كلها ولايقف أمامها، ويسعى إلى فتح الطرق التى توصل إلى التقدم.. تقدم الوطن والأمة وليس التقدم الشخصى فى الطريق إلى السلطة.

وهذا هو السبيل الذى سلكته الأمم التى سارت على طريق النهضة فى مراحل سابقة وتبوأت مكانها الآن على قمة العالم وهذا هو الدور الحقيقى للمثقف من أجل وطنه ومن أجل نفسه فى آن معا.

ولكن يغيب الآن عن كثير من شباب المثقفين أن المثقف الحقيقى يستمد قيمته من إبداعة وإنتاجه وليس من موقعه فى السلطة. فأين نحن الآن مما كان عليه غالبية المثقفين فى مراحل سابقة حين ضربوا المثل فى الصمود والإصرار على الدور الإبداعي النقدى حتى تحت القيود والضغوط. أين نحن من عصر نحافيه معظم المثقفين إلى التحايل على الرقابة المباشرة من أجل مواصلة دورهم فى أصعب الظروف، عبر الرمز والإسقاط والتجريد والإستعارة. وهذا هو ماتعلموه من مثقفين عالميين كبار، مثل شاعر روسيا العظيم الكسندر بوشكين الذى تمر فى مايو الحالى مائتا سنة على مولده فى العام ١٧٩٩. وحافظوا على دورهم فى فترة كانت السلطة تتعاطى فيها مع الكلمات كما لو كانت قنابل. كانت الرقابة فجة وقاسية. ولكن كان كثير من المثقفين مصريين على توصيل رسالتهم. والمفارقة هى أن يحدث التراجع وينتشر نمط مقف السلطة بعد أن ازدادت مساحة الحرية وصارت السلطة أكثر تسامحاً مع منتقديها. لقد صمد كثيرمن مثقفينا فى مواجهة العصا. فلما اختفت أو كادت أو صارت ناعمة، بدأ البحث عن الجزرة. ورغم أن قليلين فقط هم الذين وجدوها، وقف الكثيرون بانتظارها. لقد فعل الإحباط العام فعله فى هؤلاء الذين فقدوا الثقة فى أنفسهم وفى دورهم، فانكفأ كل منهم على ذاته لايشغله غير مصلحته الخاصة. وهم يساهمون بدورهم فى إشاعة مزيد من الإحباط، وفى تقديم قدوة سيئة للأجيال الصاعدة فى حال ضياع يبعث على القلق.

وفى مثل هذه الحال، لايكون المثقف الشمولى هو مصدر الخطر الأول. فهو لايقنع أحداً رغم صوته العالى وقائمة الإتهامات الجاهزة لديه ليرمى بها فى وجه كل من يختلف معه.

المصدر الأول للخطر هو مثقف السلطة من كل لون، وغالبا الذى بلا لون. ولكن عندما يصير المثقف الشمولى هو نفسه مثقف السلطة، يصير الخطر أكثر فداحة. ولكن لحسن الحظ مازالت الحالات التى يحدث فيها هذا التطابق محدودة. ولحسن الحظ أيضاً، مازال فى عالمنا العربى مثقفون يرفضون إهانة أنفسهم وثقافتهم فى سوق مثقف السلطة.

وهؤلاء هم الذين يبقون على الأمل فى المستقبل حتى اذا بدا لكثيرين انهم من "أهل الكهف".

د. وحيد عبدالمجيد